الثقافة في شعر حافظ ابراهيم

دكتور زهران محمد جبر

مقدمة :

صارت مصر مطمع العلماء في جميع أقطار العالم الاسلامى بعد أن زال ملك بنى العباس عنها وعن غيرها بعد تقلص سلطوتهم وسيطرتهم على الاقطار الاسلامية وخاصة بعد أن عاث التتار بعد ان تحكم الغزاة في حاضرة الاسلام ودار السلام وهدموا مدنيتها وعفوا على آثار مجدها فلم يجدوا غيرها خصوصا بعد أن اصبحت موطن الخلافة ومقر الاسلام فرحلوا اليها من جميع الاقطار وقد وطأ لهم السلاطين أكنافهم وأنزلوهم منزلا مباركا : أغدقوا عليهم الصلات ، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم فوجدوا حرما آمنا ، ومكانا ينبت العز فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون وامتد حكم المماليك فترة على مصر حتى كان الفتح العثمانى فأصاب العقم شتى نواحى المعرفة وكسد سوق العلم وانفض عنه الباحثون اذ نقل العثمانيون اكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس الى القسطنطينية ونقل العلماء والادباء والامراء والوراقين الى بلادهم ولم تلق العربية من يأخذ بيدها لان التركية حلت محلها ، واصبح الشعر بوجه عام في العصرين المملوكى والعثمانى فاقدا لكل خصائصه الفنية ، ولم يكن ذلك حدثا مفاجئا ، بل كان نتيجة للضعف الذى تدرج عليه الشعراء منذ فترة في اللغة التى هى عماد الجملة العربية واطار الثقافة ورافدها الهام ، واصبح الضعف سمة غالبة في نواح كثيرة في الحياة ، وساروا على هذا المنهج المتدنى مما جعل الشعراء

يصطنعون الشعر ويتخذونه بالمحسنات حيث جعلوها هدفا وغاية ، ومع نضوب الاذواق شاع الجمود والتكلف والافتعال ويتبع كل ذلك أسلوب مسف وتصوير تافه حتى كانت الطاقة بشيوع الالفاظ العامية واستحداث انماط لم تكن معروفة في التراث ، ثم كان التطفل على الفن الاصيل واستعواض المقدرة بالصناعة والزخرفة كالتاريخ في ذيل القصائد والبديعيات والتضمين .

يقول الشاعر سراج الدين الوراق (م ٦٩٥ هـ) فيمن اسمه عرفات موريا :

أطنبوا في عرفات وغدوا يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لى : هل وافقتنا ؟ قلت : عندى وقفة في عرفات

وقد صارحنا شاعر من شعراء ذلك العهد وهو مجير الدين بن تميم بشدة نزوعه الى التضمين فقال :

أطلع كلّ ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

كما ظهر نوع من المباراة بالشعر كالذى حدث بين صلاح الدين الصفدى وجمال الدين بن نباته م ٧٥٠ هـ في تضمين اعجاز معلقة امرىء القيس فكتب صلاح الى جمال الدين معاتبا :

أفي كلّ يوم منك عتب يسوءنى «كجلمود صخر حطه السيل من علّ»

وهكذا جرى فيها الى شوط بعيد فأجابه جمال الدين متهكما بطويلة أولها :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا « أفاطم مهلا بعد هذا التدلل »

ويبدو لى ان الشعر في المرحلة التى ذكرناها أصبح عملا عقليا

بحتا لا صلة له بالعاطفة والشعور ، ولهذا سكنت بلابله ، وعـــال نظما خاليا من روعة المعانى ، قفـــرا من بدائع المواهب والفطـــر السليمة ، ــ ولا عجب ــ فان الفنون لا تزدهر الا حيث تطمئن القلوب وتهدأ النفوس ، ويكثر الخير ، وتسهل أسباب الحيـــاة ، أرأيت الطائر الفرد يغنى بين حفيف السهام ؟ وقد كان الاولون يقولون :

« ان اللها تفتح اللها » وقد قل العطاء في ذلك العصر وانقطعت صلات الشعراء ٠

وان كنا نجد بعض الشعراء الذين نخففوا من قيـود الصـــنعة وارتفعوا عن الاســـفاف حتى قاربوا رتبة المجيـــدين ، من هؤلاء الشاعر الشهاب الخفاجى (م ١٠٦٩ هـ) الذى يقول :

فديتك يا من بالشـــجاعة ترتدى ... وليس لغير السمر في الحرب يغرس
فان عشق الناس الها وعيونها ... من الدل في روض المحاسن تنغس
فدرعك قد ضمتك ضمة عاشـــق ... وصارت جميعا أعينا لك تحـرس

والشاعر ابن منجك (م ١٠٨٠ هـ) الذى يقول :

لا تتهم بالســـوء دهـــرك انه ... جبل يجيب صداك معه صـــداء
مرآتك الدنيا وفعـــلك صـــورة ... منها فما الشنعاء والحســـناء ؟

لا غرو والشعب قد تفشي فيه الجهل نتيجة عـــدم اهتمـــام المسئولين بتثقيف الامة وتكالبهم على الحكـم ، حتى كان انصراف الادباء عن الادب وامتهانهم لكل حرفة ما عدا حرفة الادب ، واكباب نفر من العلماء على الجمع والتدوين ٠

وبعد فترة انقسام طالت على الامة الاسلامية بوجه عام وتعاقب

اكثر من حكم على مصر وانقسام شعبها بوجه خاص ، اتفقت كلمة زعماء الشعب على تولية محمد على وليا على مصر ، الذى رأى ان البلاد في حاجة الى ثورة عامة ، وخاصة في التعليم ، فأنشأ المدارس منها الحربية عام ١٨٢٥ م ، ثم مدرسة الطب في العام التالى ، وحيث يتخرج رجال الجيش من الحربية يتعهدهم خريجوا الطب بالاشراف عليهم ، وعلاجهم وكان المصريون يعرفون عن الالتحاق بهذه المدارس « رغم المراكز الهامة التى كانوا يلتحقون بها بعد تخرجهم ، ولكنهم أقبلوا حين وجدوا العناية الكبيرة التى يلقاها الطلاب ، حتى أصبح عدد المدارس في مصر ثلاثا وثلاثين مدرسة ما بين ابتدائية وتجهيزية وخاصة » (١) .

ولقد تطلب انشاء هذه المدارس انذاك استقدام الاساتذة الاجانب لتدريس العلوم ، وفي نفس الوقت استقدم المترجمون للتيسير على الطلاب فهم ما يلقيه الاساتذة الاجانب وكان المترجمون ينتسبون الى عدة جنسيات منهم السوريون والمغاربة وغيرهم ، كما تم ارسال البعثات الى الخارج . كل ذلك أحدث ثورة فكرية ، والتقاء في الافهام كان له أثره .

« وعاد هؤلاء المبعوثون فكانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الاوربية في العصر الحديث ، رأوا في أوربا علما وحضارة ، ورأوا بلدهم مصر في أول الطريق لبناء نهضتها فعملوا على السير بها شوطا كبيرا في ذلك الطريق » (٢) .

وكان عودة هؤلاء بداية النهضة الثقافية والادبية الحديثة

(١،٢) ص ١٤ تطور الشعر العربى الحديث ماهر حسن فهمى .
، ص ٢٥ ج ٤ تاريخ آداب اللغة العربية .

في مصر ، وقد عملوا على توصيل محصولهم من المعرفة للدارسين واستعانوا في ذلك بالمراجع مما أوجب ترجمة المصادر « وعمدوا الى مراجعة القواميس العربية والاستعانة بها فاستفادت العربية ثروة جديدة » (١) ٠

كانت العربية السائدة آنذاك لا يمكن ان تفى بمطالب النهضة المنتظرة ـ لا لعجز فيها أو قصور ـ ولكن لغلبة اللكنة الاجنبية على الالسن وشيوع الالفاظ الركيكة مع التركية مما دعا بعض الادباء الى التنقيب في كتب الاقدمين واستخراج الالفاظ التى تعبر عن المصطلحات ، فان وجدوا صعوبة في التعبير عنها وعن الالفاظ الفنية ، مضوا يصنعون المصطلحات ويطلقون الالفاظ ، ونتج عن دراستهم لكتب الاقدمين تتبعهم لجميع آثارهم فعكفوا على مراجعتها وخاصة ما كان منها في باب الادب واللغة فهالهم ما وجدوا فعظموا شأنها وراعتهم منازع بلاغتها وهفت انفسهم للاستزادة منها واشاعتها فطبعوا طائفة من كتب ائمة اللغة وأعيان البيان في العصور المتقدمة ٠

لقد كان دور المبعوثين بارزا وعظيما في مجال التأليف والبحث والترجمة والفكر ، كان من هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى اقترح على محمد على انشاء مدرسة الالسن لسد حاجة البلاد من الترجمة ، وانتشرت المطابع كالمطبعة الاميرية التى أنشأها محمد على سنة ١٨٢٢ م فقد بدأت تعمل في ذلك الحين ، وكانت لها دور كبير في نشر الثقافة بين المصريين ، كما ظهرت بعض الصحف ، وان كانت تصدر في البداية باللغة التركية كالوقائع الا انها تحولت الى العربية ،ولقد

---

(١) ص ٦٣ ج ٤ تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان ٠

« تولى رفاعة الطهطاوى أمرها فنهض بهـا نهضـة لها خطرها فاختفت الاخبار التافهة وحلت محلها الاخبار المشوقة والقطع الادبية الممتازة » (١) .

وباتساع دائرة النهضة في النصف الثانى من القرن التاسـع عشر « بدأ الشعب يحس بكيانه ويدافع عن مصيره تحت الضـغط الواقع عليه من الاجانب ، واحتلت الصحافة مكانا مرموقا في الحيـاة الاجتماعية » (٢) وبدات الكتابة تنأى عن السـجع وأنواع البديع المتكلف لتعرض الافكار المتكاملة ، والطرق العامية الجيدة واحتضن الشعراء دواوين الاقدمين وحفظوا منها الكثير وعكفوا على قراءتهـا وافتتنوا بالمتنبى وأبى نواس والبحترى وابن خفاجة وابن المعتـز وغيرهم ، وراعهم ما قرأوا وكان لابد أن يتأثر الشـعراء بكل ذلك فبدأوا يعبرون عن أنفسهم الشاعرة .

كانت الدلائل تشير الى أن الثورة في مجالات المعـرفة ارهاص بظهور المبدعين في كل فن وبخاصـة الادب . فكـان على رأس الاحيائيين محمود سامى البارودي - وان كان في الامكان القول بأن شعر ما قبل البارودى عامة قد وسم بفتور العاطفة في شتى الاغراض - الا ان البارودى كان يسير وحده بخطوات واسعة تاركا وراءه شعراء عصره يسبقهم بمراحل ويتفوق عليهم ولحق بالشعراء المجيدين في عصور الشعر الزاهية حيث اقبل على دواوينهم بنهم لايبلغله نهاية حتى استظهر الكثير ووعى منها القدر الذى يحملـه على جنـاح الفصحى ومطية البلاغة ليقرن اسمه بمشاهير الشعراء في كل عصر

---

(١) ص ٦٣ ج ٤ تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان .
(٢) ص ٣٧ تطور الشعر العربى الحديث ماهر حسن فهمى .

فمعارض هذا وناقض ذلك ، وان كان البارودى قد تتلمذ على الشعراء الاقدمين الا أن ذلك وحده لم يكن ليصنع منه شاعرا متكاملا فـــردا: فقد جمع الى ذلك طبعا سليما وذوقا فطريا وحاسة مرهفة وموهبـــة خلاقة جعلت منه الشاعر الذى يظفر بالشعر ظفرة عظيمة ردت عليه ديباجته التى نصلت من مئات السنين .

تصدر البارودى للشعر وهو لا يزال يافعـــا حدثا « فنظمـه في التركية كما نظمه في الفارسية وكان ضليعا في آدابهما ، ونظـم في العربية وهو دون العشرين فأوفى على الغاية من الابداع والاحسان »(١)

اختلفت نظرة البارودى للشعر اختلافا كبيرا عن نظرة الكثيرين من معاصريه فهو عنده سجل خالد للشاعر وذكرى عطرة فهو يقول:

تدبر مقالى ان جهلـــت خليقتى لتعرفنى فالســـيف يعرف بالأثر
سيذكرنى بالشـعر من لم يلاقنى وذكر الفتى بعد الممات من العمر

ويقسم الاستاذ العقاد الفترة ما بين الركود والجمود في الشـعر وبين النهضة والاجادة الى اربع مراحل او اربع درجات متواليـات اذ يجعل المرحلة الاولى : دور التقليد الضعيف او التقليد للتقليد ، وثانيها: دور التقليد المحكم ، وثالثها الابتكار الناشيء من شـعور بالحـــرية القومية ، ورابعها الابتكار الناشيء من استقلال الشـــخصية او من شعور بالحرية الفردية ويجعل البارودى في الطليعة من مرحلة الابتكار التي يأتي بها الشعور بالحرية القومية . (٢)

---

(١) ص ٣٤٣ ج ٢ المفصل فى الأدب العربى بالاشتراك .
(٢) ص ٩٠ شعراء مصر وبيئاتهم العقاد .

ومحصلة ما سبق ان البارودى ـ وان كان قد نظم الشعر وهو ما زال فتى غضا ـ قد تمكن من فنه فبذ وبرع وأطلق الشعر جزلا فخما وحلق به في سماوات الاجادة ، واستحق ان ينسب اليه احياء الشعر العربى من الرفات وتحريره من عبودية الصنعة حتى ضاهى به ما قيل في أزهى عصوره ، وكان بذلك زعيم مدرسة ترسم خطاه من جاء بعده وسار على نهجه خلال النصف الاول من القرن العشرين .

ويكاد النقاد يجمعون على زعامة البارودى للمدرسة الاتباعية والتى انطوى تحت لوائها كثير من الشعراء من أمثال عبد المطلب والرافعى والغاياتى والجارم والكاظمى وتمسك هؤلاء الشعراء بالنسق الموروث فانطلق الشعر قويا شريف المعنى مشرق الديباجة متلاحم النسج رصين القافية متأجج العاطفة يرصد المجتمع ويبعد عن الاغراق في الذاتية ، كما تخففوا من المحسنات البديعية الا ما جاء عفو الخاطر بلا تكلف . ويجمعون على التزام المحافظة على طريقة العرب ولغة القرآن ولزعيمهم المحمود في رد الشعر الى اصوله ومنابعه وفتوته وقوته ونضارته وتألقه في العصور السابقة يقول العقاد :

« ولقد كان البارودى امام الشعراء في هذا الطور الحديث بلا ريب ولا خلاف وصاحب الفضل الاول في تجديد اسلوب الشعر وانقاذه من الصناعة اللفظية والتكلف العقيم ورده الى صدق الفطرة وسلامة التعبير ، فهذا الامام المتقدم ذو أثر عظيم فمن لحق به من الشعراء المحدثين والاسيما حافظ ابراهيم » (١) الذى نحن بصدد الحديث عنه .

---

(١) انظر ص ١٣ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي العقاد .

حياة حافظ ابراهيم :

انه من العسير سرد الباحث ـ في عجالة ـ كل الجزئيات التى تدخل في تكوين الاطار العام للشخصية حسبما تعارف الدارسون حين تصديهم البحث وتناولهم كل ما يمت للاديب بالرصد والتحليل والنقد ولكنه يحاول ان يعطى هنا صورة شبه متكاملة لأمس شيء يمكننا اعتباره مدخلا لفهم الشاعر ونتاجه ٠ هذا الشيء هو حياته التى سوف نتناولها بالقول الكاشف لنا عن سمات شاعرنا ٠ ووجدنا مسايرة لمنطق الاشياء أن من العدل أن نقسم حياته الى مراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : تبدأ منذ ولادته حتى تخرجه من المدرسة الحربية (١٨٧٢ ـ ١٨٩١)م ٠

المرحلة الثانية : تبدأ عقب المرحلة الاولى حيث تقلب في الوظائف الحكومية من حربية الى داخلية ، وسفر للسودان ، ثم استيداعه واحالته الى المعاش بناء على طلبه (١٨٩١ ـ ١٩٠٦ م) ٠

المرحلة الثالثة : وهى الفترة التى عمل فيها بدار الكتب حتى وفاته (١٩١١ ـ ١٩٣٢ م) ٠

أما عن المرحلة الاولى ، فحيث كانت ولادة حافظ ابراهيم كما تشير اكثر المراجع انها كانت سنة ١٨٧٢ م بديروط احدى قرى اسيوط على سفينة راسية عند شاطىء النيل وكان أبوه أحد المهندسين المشرفين على قناطر ديروط ، ولم يعش طويلا بعد ولادة ابنه فنزحت به أمه الى القاهرة فكفله خاله ولما شب عن الطوق الحقه بالمدرسة الخيرية ولكنه لم يبق بها وتركها الى مدرسة

القربية ثم الى مدرسة المبتديان ومنها الى مدرسة الخديوية وما كاد يأنس بالاستقرار حتى اصطحبه خاله الى طنطا حيث التقى بالاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وكان طالبا بالمعهد الاحمدى (١٨٨٨ م) وعمر شاعرنا آنذاك ستة عشر عاما وقد قضي وقتا مع صديقه في مذاكرة نوادر الادب ولكن الحال لم يدم به وكأنه قد كتب عليه الترحال الدائم ـ والملل السريع كان في طبعه ـ اذ سرعان ما أعلن خاله ضجره به واستثقله ، وقد فطن حافظ الى شعور خاله نحوه وقرر هجره ، ونظم في ذلك بيتين قال فيهما :

ثقلت عليك مؤنتى ... انى أراها واهية
فافرح فاني ذاهب ... متوجه في داهية

ترك كافله وأعلن العصيان وانفرد بالحياة يجرب حظه ولكنه كان مشدودا بأوثق الصلات بالبؤس وخطواته مقبدة بالتعثر والتحف الأهات واحترف الشكوى وتمنع عليه الموت المنقذ مما هو فيه ..

عجب لعمرى كيف مد فطالا ... وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت ما لى قد اراه مباعدا ... وجل مرادى أن أوسد حالا
فالموت خير من حياة أرى بها ... ذليلا وكنت السيد المفضالا

بحث عن عمل حر يشغل به وقته ويداوى به نفسه الملول فتمسح بالمحاماة فلم يكتب له اللحاق بركبهم بل كان المتخلف العاجز في حلبتهم ووجد من حظه عنادا وحربا عليه فأضمر في نفسه وهمس اليها بالانتقال من طنطا الى القاهرة هربا من البؤس الذى يستبق معه وحط رحله في مدرسة الحربية ـ حيث داعبت الامانى خاطره في ان يكون شيئا ـ واستمر بها حتى تخرج عام ١٨٩١ م وقد نظم كثيرا من الشعر في هذه المرحلة الا انه وجده غير لائق باذاعته فماذا فعل فيه ؟ يقول الاستاذ أباظة : « حدثنى رحمه الله أنه نظم كثيرا

في اثناء الدراسة الابتدائية ولكنه عندما شب عمد الى شعر الحداثة فاتلفه جميعا لكيلا تحظى من كلامه الا بالشعر الناضج الرصين »(١) ٠

المرحلة الثانية ، حيث تخرج من الحربية والتحق بوزارتهـــا ثم بوزارة الداخلية ملاحظا بمركز بنى سويف ثم معاونا للبوليس بمركز الابراهيمية وعاد مرة اخرى الى الحربية فاحيل الى الاستيداع وعين بادارة التعيينات وخلالها سافر الى السودان مع من صحبوا كتشنر في حملته على السودان ، وضاق ذرعا بعمله في السودان واظهر تبرما واكثر من الشكوى وعاوده داء الملل،حتى اذا كانت سنة١٨٩٩م حدثت ثورة في السودان اتهم فيها حافظ بالتآمر معشلة من أصدقائه فاحيلوا للاستيداع وتركت هذه الحادثة في نفسه اثرا اليما وجرحا عميقا حيث كان يتراءى له شبح البطالة عن كثب ويسول له ٠٠ التمس احالتـــه الى المعاش فأجيب الى طلبه وعاد من السودان حوالى سنة ١٩٠٦ ٠

في المرحلة السابقة أيضا تجد المسحة الغالبة على شـــعره هى الشكوى وان كان في أوليات القصائد وهو بالجيش كان يتندر ببعض الاراجيز ينشئها في رؤسائه مثل قوله :

تراه اذ ينفـــخ في المـــزمار تحسبه في رتبـــة السردار
يجتنب العـــاقل والنبيهـــا ويعشق الجـــاهل والسـفيها

كما ان عدم الرضا والقناعة صفتان لازمتاد في كل خطـــوة ٠ راسل صديقه محمد بك بيرم سنة ١٩٠٠ بقوله :

ولكنى مقيـــمدة رحـــالى بقيد العـــدم في وادى الهمـــوم
فرحت عن الـــديار أروم رزقى واضرب في المهـــامه والتخـــوم

---

(١) ص ١١١ حافظ شـاعر القومية العربية محمد هارون الحلو ٠

وهـا أنا بين أنياب المنـايا وتحت براثن الخطب الجسيم (١)

شكا الوحدة ونظر الى الزمن والدهر بعينين معصوبتين بالحنق وقلب مثقل بالخوف من المستقبل ووسم دهره بالجـور في الاحـكام وبالظلم المورث للاسقام ٠ « لقد وجهته الظروف الى الحرب ٠ قـد تعلم ولكن من فقر وبؤس ، وارتحل ولكن الى حيث الكد الذى لا يفيد والعناء الذى لا يغنى الى حيث الشمس المحرقـة أبدا المشرقة أبدا الى الطبيعة المظلمة مضي كئيبا محزونا » (٢) ٠

كتب الى زمرة من أصدقائه يقول :

من واجـد منفر المنـام
طريد دهـر جائر الاحكـام
مشتت الشمل على الدوام
مـلازم للهم والسـقام

ويستطرد فيقول :

ياليت شعرى بعد هذا العام
اليكـم ترمى بى المـرامى
أم ينتوينى رائد الحمـام
وأنطوى في هذه الآكام (٣)

دأب الشاعر على بكاء الحظ العاثر وندب فأله السيىء وان كان يخالف واقعه الذى يعيشه ويتبرأ من شكواه ويظهر رضـاه على

---

(١) ص ١٦٥ ج ١ ديوان الشاعر ٠
(٢) ص ١٦٤ وما بعدها حافظ وشوقى طه حسين ٠
(٣) ص ١٩٧ ج ١ ديوان الشاعر ٠

عكس ما يحس به احيانا كتب الى صديقه البابلى بالقاهرة قصيدة بعث بها اليه من السودان يقول فيها :

نحن نرضي بالقوت من هذه الدنيا ولو بات دون قوت النعام
واذا خان قسمنا ما شكونا لسوى الله أعدل القسام

وان كان من السهل استخلاص الابات ـ التى كانت ترسلها نفسه المعذبة ـ من بين تلك الكلمات السابقة ، والتى تعتبر كالخيط الدقيق الذى يشد بعضها الى بعض ٠

ثم يقول :

كيف تنسي يا بابلى غريبا بات بين الظنون والاوهام
وحزينا اذا تنفس عادت فحمة الليل جمرة من ضرام
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام

لم يطق جو السودان وخاصة عندما يتذكر الدعة والجو البديع والاصدقاء في مصر يصف حاله :

وما اعذرت حتى كان نعلى دما ، ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا صبيغا بعد ما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى
متى أنا بالغ يا مصر أرضا أشم بتربها ريح الملاب

كان نتاجه الشعرى في هذه المرحلة أغزر وأوفر من المرحلة التى سبقتها وزاوج في أغراضه بين الشكوى والوصف وشعر الاجتماعيات ملتزما العمود العربى الموروث ٠

ما بين المرحلتين الثانية والثالثة مدة قوامها سنوات خمس

لا يمكن اغفالها لما لها من تأثير عميق على نفسية شاعرنا واحساسه وبالتالى على شعره ٠

كانت هذه الفترة من عمر حافظ ابراهيم اشد عليه مما سبق وأعنف حيث عاد من السودان بعد احالته الى المعاش « فقد عاد من غيبته تنتظره البطالة والشوارع والقهوات المنحطة والفقر والشظف وسوء الحال وهذا الهم الثقيل الطامح الذى يضاجع الفقير اذا أوى الى فراشه ويكشر له عن أنيابه » (١) ٠

عرض نفسه على جريدة الاهرام ليتولى عملا فيها ولما لم يفلح ظل بلا عمل « يغشي مجلس الامام الاستاذ ، وكان قد اتصل به أيام كان في السودان ، فلما عاد زاد اتصاله به وعطف عليه الاستاذ وانهله من علمه وفضله كما غشي مجالس الادباء والعظماء يسمع منهم ويغنى لهم بشعره وأدبه » (٢) ٠

في هذه الفترة خالط جمهور العامة وجالسهم كما استمع الى الادباء والعلماء المتصدرين لمجلس الامام ، ونزل الى المقاهى مع الدهماء والعامة وتجاوب شعره معهم ووجد قبولا واستحسانا فترجم عن مشاعرهم واحس باحساسهم فاكثر من شعر الوطنية والحماس اذ أنه لا يخشي من شيء ، ولم يخشي ؟ فلا وظيفة يخف عليها الضياع ولا أهل يورثهم مئونة الهم والحزن ، فراح يستحفز الهمم ويتجاوب مع الاحداث ، وارتمى في أحضان الشعب يتحدث عنه : يبلور كل موقف الى قصيدة يكسبها قوة حين يلقيها يتضافر صوته المؤثر ذو الجرس المنغم مع العاطفة الجياشة التى تسرى وتكسو

---

(١) ص ١٦٦ حافظ وشوقى طه حسين ٠
(٢) ص ١٥ مقدمة ديوان حافظ بالاشتراك ٠

قصائده « والمحقق على كل حال أن صوته في الالقاء ولباقته في الايماء كان لهما شأن في جذب الاسماع اليه واعجاب الناس به ليس بالشأن اليسير » (١) ٠

كان حريصا أشد الحرص على صلته بالشيخ الامام ويخاف أن تنقصم عرى المودة بينهما ولذلك كان يبادر الى نفى كل هاجس يخطر على باله يظن أنه سينال من مكانته عنده فيهوى الى حيث لا يهوى نسمعه يقول متعطفا :

لقد بت محسوبا عليك لاننى فتاك وهل غير المنعم يحسد ؟
فلا تبلغ الحساد في شماتة ففعلك محمود وانت محمد (٢)

كما أحتل الشعر الاخوانى جانبا كبيرا من شعره في هذه الفترة الوجيزة ، كما اكثر من المدح والتهانى يشوبها الظرف والدعابة أحيانا ٠ يقول مهنئا الخديوى عباس بالعيد سنة ١٩٠٨ م في قصيدة مطلعها (٣) :

سكت الظلام وبات قلبك يخفق وسطا على جنبيك هم مغلق

يقول فيها :

يا للبيان بغير بابك واقفا يبكى ويعجله البكاء فيشرق
انى كهمك في الصبابة لم أزل ألهو وأرتجل القريض وأعشق
نفسي برغم الحادثات فتية عودى على رغم الكوارث مورق

---

(١) ص ١٥ ، ١٦ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى العقاد ٠
(٢) ص ١٩٥ ج ١ ديوان الشاعر ٠
(٣) ص ٤١ ج ١ ديوان الشاعر ٠

أما المرحلة الثالثة فتبدأ منذ سعى له احمد حشمت باشا سنة ١٩١١ م ناظر المعارف حينذاك وعينه رئيسا للقسم الادبى في دار الكتب المصرية ، وظل بها الى ان أحيل الى المعاش بعد قضاء عشرين سنة بدار الكتب توفي « بعد احالته الى المعاش بنحو أربعة أشهر ونصف » (١) ٠

بقدر ما تعتبر هذه المرحلة طور الركود وخمود جذوة القريض عند شاعرنا الا أنه قد لاقى من اسباب الحياة ما يضمن معها قدرا كبيرا من الاستقرار والتنعم فقد انتعش ماديا وترفه وأوغل فيه « كانت هذه الفترة من حياته ـ وما أطولها ـ فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته الا نادرا فكان منصبه نقمة عليه ، ونقمة على فنه ، ومنفعة له ، ومضرة على الناس ولعل أيام بؤسه الاولى روعته وأجزعته حتى قامت شبحا دائما امام عينيه تنذره بالويل والثبور وعظائم الامور ان هو أصيب في منصبه أو مس في مرتبه » (٢) ٠

وهكذا نجد الشاعر سيرا على مبدأ المهادنة يمسك عن القول ويصمت عن القريض ويحبس نفسه اختيارا في قفص الوظيفة ويشيح بقلبه عن مصادر الالهام ، ويخالف صريحا ـ ان قال ـ ما كان يذهب اليه من رأى ويدعو به نسمعه يقول للسلطان حسين مطالبا اياه ان يوالى الانجليز ويهادهم حبال الود في قصيدة قالها سنة ١٩١٥ م مطلعها : (٣)

هنيئا أيها الملك الاجل ... لك العرش الجديد وما يظل
تسنم عرش اسماعيل رحبا ... فأنت لصولجان الملك أهل

---

(١) ص ١٦ مقدمة ديوان حافظ أحمد أمين ٠
(٢) ص ١٩ مقدمة ديوان حافظ ٠
(٣) ص ٦٧ وما بعدها ج ١ الديوان ٠

يقول فيها :

ووال القـوم انهـم كـرام ... ميامين النقيبة حيث حلـوا
لهم ملك على التاميز أضحت ... ذراه على المعالى تستـهل
وليس كقـومهم في الغرب قوم ... من الاخلاق قد نهلـوا وعلـوا
فأن صادقتهم صـدقوك ودا ... وليس لهم اذا فتشـت مثـل

والشاعر معذور ـ خاصة ـ عندما نعلم سابق البؤس الذى كان يكتنفه والفقر والشقاء وما عاناه منهما ، خمدت جذوة الوطنيـة مع الحاجة لحين ، فوادع المحتـل ومدحـه ، واكثر من شـعر الدعابة والاخوانيات محترسا من الوقوع في شبهة النقد للسياسة والساسة ، كما ارتاد بشعره الحفلات الخيرية ، وربما يوافق شعره الذى يلقيه في تلك الحفلات مزاج الدعة وفراغ البال واستقرار سفينة حياته على شاطىء الاطمئنان وتحلله مما كان يثقله من الهموم ، وأى هم اكبر من أن لا يضمن الانسان قوت يومه غير آمن في سربه ؟! وبالوظيفـة كفى عناء التشرد وذاق الهدوء والسكينة وهو بها أضن من البخيل الشحيح بحاجاته • وانسحب ذلك الهدوء على شعره فجاءت قصائد تلك المرحلة تحمل سمات النفس الراضية في موسيقاها الخفيـة وفي عباراتها وانتظام ابياتها •

يقف داعيا لجمع التبرعات في حفل خيرى اقامته جمعية الاتحـاد السورى في الاوبرا السلطانية لاعانة الطلبة الشـاميين بالازهـر فيقول : (١)

أيها الوسمى زر نبـت الـربا ... واسبق الفجر الى روض الزهر
ان في الازهـر قوما نالهـم ... من لظى نيرانها بعض الشرر
اصبحوا ـ لا غدر الله لنـا ـ ... في عنـاء وشـقاء وضـجر

---

(١) ص ٣٠١ ج ١ الديوان •

لزلاء بيننـــا ان يرهقـوا أو يضـاموا امنها احدى الكبر
فأعينـوهم فهـم اخوانكـم مسـهم ضر ونايتهم غـير

وأنشد بمجد صاحب دعوة الى الاحسان سنة ١٩١٥ فقال وقد مزج بين الجد والدعابة :

لولا سـليم لم يقـل قائل ولم يجـد من جـاد بالأمس
لله مـا أشـجعه انـه ذو مـرة فينـا وذو بأس
يقـوم في مشروعه نافـذا كـأنه عنـترة العبسي
تلقـاه في الجـد كمـا ينبغي وتارة تلقـاه في الهلس (١)

ورب احساس دفين حيال اليتامى والمساكين كان يدفعـه الى ان يتصدر الشعراء الذين يلبون دعوة الجمعيات الخـيرية فيوظف قصائده دعوة لجمع التبرعات حتى يقى الناشئة شرورا ومعـاناة وتشردا وخاصة عندما تعلم أن الاملاق قد قلم ظفره والحاجة قـد نحلت وبره ولعل ما نسوقه من أبيات تمثل حياته في طفولته وحداثته تمثيلا صادقا عندما يقول على لسان حدث : (٢)

قضـيت عهـد حـداثتى مـا بين ذلّ واغـتراب
لم يغن عنى بين مشرقهـا ومغـربها اضـطراب
صـفرت يدى فخـوى لهـا رأسي وجـوفي والوطـاب
وانـا ابـن عشر ليس في طـوقى مكافحـة الصعاب
لم يبـق من أهـلى سـوى ذكـر تنـاساه الصـحاب
أمشي يرنحـنى الاسي والبـؤس ترنيح الشراب

كان يردد الشعر فيما بينه وبين نفسه وان لم يبح به ولذا قلّ نتاجه في هذه المرحلة ، وكيف يظهر أو يسمع ما يود أن يقوله وهـو

---

(١) ص ٢٩٧ جـ ١ الديوان .
(٢) ص ٣٠٢ جـ ١ الديوان .

حريص ـ حرص اللص على أن لا ينجلى ستر الليل عنه ـ على وظيفته ولم يكن سخاء حافظبماله ليشملسخاءهبوظيفته ، ولذا كف عن الشعر الذى يتطرف اليه مجرد الاحتمال والظن في انه يتهاوىء السلطة او يتحدث عن السياسة يقول أحمد أمين « لقد أنشدنى قبيل وفاته قصيدته التى مطلعها :

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماك يضام

وكاد تنحو مائتى بيت يصف فيها وزارة اسماعيل صدقى باشا فأشرت عليه ان ينشر بعضها ، أو يكتبها ، او يمليها او يحتفظ بها بأى شكل من الاشكال فقال انى أخاف السجن ولست أحتمله » .

وكان ضجرا بحياته الرتيبة التى بدت معها الدنيا الفسيحة كسجن انفرادى يبث العيون من حوله ترصد عليه نجوى الفؤاد . ولما لم يطق معايشة نفسه بين جدران الصمت السحيق بعث لاحد أصدقائه يقول :

أنا في الجيزة ثاو ليس لى فيها أنيس
أنكر الانس مكانى ونأى عنى الجليس
ليس يدرى من يرانى أطليق أم حبيس

وادركته منيته صباح يوم الخميس ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ حيث ودع أحزان الدنيا وأشجان الوحدة .

روافد الثقافة في شعر حافظ ابراهيم :

قبل ان نخوض غمار البحث في شعره للوصول الى تلك الروافد أو نجمع شتيتا منه لاصدار حكم مسبق ولكى نلتزم الجادة والصواب

لابد من تحديد معنى الثقافة التى نحن بصددها وحتى نعرض شعر الشاعر على المفهوم الدقيق لمعنى الكلمة فيجيء الحكم بلا شطط له او عليه ٠

الثقافة في معناها العام يرتبط بمعناها العربى المأخوذ من التسوية والتهذيب ٠ تقول : ثقفت العود : اذا سويته وهذبته اما مدلولها الاصطلاحى فهو أبعد ما يكون مما يتوارد الى ذهن الانسان من أول وهلة في أنها تحصيل المعرفة ، وشاع بين الناس خطأ أن معناها المعرفة والمعلومات وان المثقف هو الكثير المعلومات ، يأخذ من كل علم أو فن ، أو أدب بطرف وان يكن متخصصا في ناحية والصواب ان الثقافة في جوهرها هى ما تؤدى بحاملها الى تكوين رؤية خاصة يرى بها الكون والانسان او هى حصيلة او اثر لمجموعة عوامل تؤثر في الانسان وتطبعه بطابع مميز من أصل ينتمى اليه ولغة يتحدث بها ومعتقدات يدين بها وأخلاق وعادات ونظرة للحياة ومشاركة في صنعها او تنميتها من خلال انتمائه ومعتقداته ومعنى هذا ان الثقافة حالة روحية او عقوية او وجدانية تتكون من هذه العوامل أو هى الجانب الفكرى والروحى في الحياة (١) ٠

وعلى ما سبق اذا قلنا ـ مثلا ـ ثقافة مصرية وجب ان يكون المراد بالنسبة لهدفنا هنا هو حالة وجدانية وذهنية عند المواطن المصرى تكون هى مداره في القبول او الرفض لما يجرى حوله من احداث والعوامل التى تؤدى الى ايجاد هذه الحالة الوجدانية منها التشبع بروح الدين واهتمام المصرى بكيانه الاسرى مما يسمى بمبدأ التعاطف أو التراحم ثم حبه للوطن ارضا وقوما ٠ والمواطن بخصائصه

---

(١) انظر جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٨٣/١١/٢٨ م ٠

تلك هو عربى كذلك وهنا تدخل اللغة العربية وآدابها ضمن العناصر التى تكون ثقافة الانسان المصرى العربى بالاضافة الى ما ينبغى أن يكون له من نظرة علمية ينظر بها الى المسائل العامة ، ويأتى بعد ذلك دور العلم والمعلومات ليكون هدفه تغذية هذا الوجدان بما يقويه ويدعمه ، دون ان يكن داخلا في تكوينه • ويمكننا ان نخلص مما سبق الى تعريف موجز جامع للثقافة على انها : حالة وجدانية أو رؤية تستمد وجودها من الدين واللغة والعادات والبيئة وعلى هذا فالثقافة محلية ، والعلم لا وطن له وان الامم تختلف في ثقافتها • (١)

وعلى ما سبق يمكننا ان نستعرض شعر حافظ ابراهيم ونزنه بمعيار مقنن حتى نعرف مقومات الثقافة وروافدها عند شاعرنا •

الحقيقة أن حافظ ابراهيم بحكم نشأته ومعايشته لظروف خاصة ومعاصرته للتاريخ جد خطير من تاريخ وطنه مصر واغترابه عنها وتعامله مع مغتصب غادر ، كل تلك العوامل مجتمعة جعلت منه شخصا يقدس في المقام الاول وطنه ويخلص له ثم تتسع دائرة الحب والغيرة لتشمل امته العربية والتى يعبر عنها في قصائده بالشرق يقول في واحدة منها :

حتى أرى الشرق أدناه وأبعده ... عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجرى المودة في أعطافه طلقا ... كجرية الماء في أثناء أفنان
إن دام ما نحن فيه من مدابرة ... وفتنة بين أجناس وأديان
رأيت رأى المعرى حين أرهقه ... ما حل بالناس من بغى وعدوان

---

(١) انظر تعريفات أعضاء لجنة الثقافة لها بالمجلس القومى للثقافة ـ المجالس القومية المتخصصة • بحوث مقدمة الى اللجنة المختصة لتحديد مفهوم الثقافة •

لا تطهر الارض من رجس ومن درن حتى يعاودها نوح بطوفان (١)

آمنت طوائف الشعب العربى ، وحكوماته الوطنية بالرابطة الجامعة التى تبعثهم على غاية واحدة واذ وجدوا ان هذه القومية هى المارد الجبار يرتعد من رهبته العدو الغاشم هبوا جميعا لارساء الدعائم واستكمال أسباب السيادة والعزة لهذه القومية الجامعة .

وبرز صوت شاعرنا قويا يدوى في الدعوة اليها عاش عمره يتغنى بأمجادها بل ويسرف في اثارة المشاعر والاحاسيس لاعزازها كما وقف شامخا في محنة القنال يستصرخ شعبه وعروبته بقوة روحية خارقة فتتكتل العروبة للنصر وتؤازر مصر في محنتها وصوته يدوى :

أنا ان قدر الاله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى
ها رمانى رام وراح سنيما من قديم عناية الله جندى

ثم يلتفت لمجمع الضمير العالمى فيخاطب الامم المتحدة لتدخل بثقلها في نصرة المظلوم وردع الظالم وينبهها الى انعكاس الاوضاع وقلب المفاهيم .

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وان يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الاسد منهم وان تقيد اسدى

ربحب جارف للوطن وقلب يقدس تراب مصر يستحفز هممم الشباب ويشجعهم :

---

(١) ص ٢ حافظ ابراهيم شاعر القومية العربية محمد هارون الحلو .

نظـــر الله لي فأرشـــد ابنائي فشـــدوا الى العلا اى شـــد
انما الحق قوة من قـوى الديـــا ن امضي من كل ابيض هنـــدى

وفي مقام المباهاة والاستشهاد بالمجـد الســـانف والحضـــارة العتيدة ـ وكأنه يلزم الاعداء الحجة ويقهرهم بالسبق في ميـــادين المعرفة ـ يذكر التراث الخالد والشاهد على تصميم هذا الشـعب في بلوغ الغاية والعقول الجبارة التى وســـعت الفنـــون حتى رســـخت حضارة عريقة فيقول :

وقف الخلـــق ينظرن جميعـــا كيف ابنى قواعـــد المجـد وحدى
وبناة الاهـرام في سـالف الدهر كفـــونى الكـــلام عند التحـدى

ان عروبته الخالصة ، ومصريته الصريحة وقوميته العميقـــة لم تكن جميعا لتدع له في مجال الجد بقية من عبث أو لهو ، ومن هنا كان حافظ شاعر الوطنية في عصره غير مدافع وكانت عاطفته طاغية بتلك الترنيمات الخالدة .

لقد كان يدافع عن وطنه وعن عروبته بالقـدر الذى يســـمح له بالحجـــاج والقـــراع ، وقـــد تلوح تاريخ مصـــر بهـــذه اللمحات الصادقة التى تبهر العالم ، حيث يتطلع الى شاعر مصر ، وهو يكتب الاحداث الكبرى : ويوقع بمزهره أنغام شعبهوهىحبيسة في صدر امته خشية بطش المستعمر وجبروته . كان وقاد القريحـة يصول ويجول في ميدان الوطنية تطاوعه خاطرته ونحس بحب الوطن يلمس ويخالط شغاف قلبه فيرسل تراتيل التقديس أنى تتـــاح له الفرصة ويأسف لحال آثارنا وتراثنا فيقول :

رأيت جثـــة خـــوفو بقـرب ســـيزوتريس
فقلـت يا قـوم هـــذا صـانع العقوق الخسيس

أجســـاد أمـلاك مصر ... وشـــائدى منفيين
من بعـد خمسين قـــرنا ... لم تســـترح في الرءوس
أرى فـــراعين مصـــر ... في ذلـــة ونحـــوس
قـديس ظلمـا حمـاهم ... وكان غـــير مـدوس

وفي لمحة متحسرة وأنة متوجعة ينبه الى الفـرق بين اهتمـام الشرق والغرب بتراثيهما :

لو أن أمثـــال مينـــا ... في الغرب أو رمســـيس
بنـوا عليهـا وخطـوا ... حظـائر التقـــديس

كان حافظ ابراهيم يملك الاساس القوى والسند الذى يرتكز عليه ليعد شعره كله ثرا وخصبا بثقافة عميقة فهو وطنى من الطـراز الاول وفي مضمارها لا يجارى وهو مصرى يذوب حبا فيها ويعشـقها لو قرأت الابيات التى اوردناها في تحسره على عرض أجساد الفراعين في المتاحف لوجدت أنه كان أول من دعا الى حفظ تلك الاجساد حيث مقابرها اكرم لها من هذا العرض الجائر ، ألم تكن هـــذه دعـوة المستنيرين في أواخر السبعينات ؟ وقد دعا بها شاعرنا من منطلق وطنيته وحبه لهذه الحضارة العريقة العميقة الجذور .

ثم هو بعد ذلك عربى يحزن اذا مس العـــروبة طائف من الشر ويقف في وجه الظلم والعدوان يدعو ويصرخ يستخفر ويطالب العرب بأن يأتبهوا لما يكاد لهم في الخفاء وما يحيله الاعداء من دسائس .

وهو ابن بيئته وظروف حياته ، يتفاعل مع كل ما يقع عليه نظره وهو الترجمان الصادق لكل ما عاصره في مختلف جوانب الحياة وقبـل ذلك هو الصادق في عرض حياته الخاصة ـ ان لم يكن تصريحا فهـو تلميح أقرب الى الظهور والوضوح ـ بحيث يمكننا ان نستخلص حياته

ونجلى خافيها من شعره • وكان الشاعر المسلم الذى يعتز باسلامه ويعد المرتكز السامق الذى يستلهم منه القوة ويسترجى منه الالهام ويملك عليه كل مشاعره وأحاسيسه فما دفاعه عن العرب والعروبة وأرض الكنانة الا أول خطوة به يصد المعتدين على الدين ويذب عن معتقده وما استنفاره لجند الله المخلصين بأن يأخذوا حـــذرهم من مكائد المستعمرين الا لون من تغلغل هذا الدين الحنيف وتملكه كيانه•

ويتأكد في نفسه أن بقاء الدين والعرب والامة العربية جميعـا رهن ببقاء اللغة التى هى عماد وجودها وأســـــاس عظمتها وسر حفاظها على مقوماتها وأنها معيار التفاضل والتمايز ولسان الرسول الكريم ، وصلب الشريعة ومحتوى المنهج الهادى • لذا نجده تنفطر نفسه حزنا على ذهاب البعض مغرمين بلغات الغرب يهملون لغتهم العربية ويرفع عقيرته داعيا الى التمسك بها والحفاظ عليهـــا والا فعلى هذه الامة السلام •

وبعد العرض السريع المتقدم لروافد الثقافة عند شاعرنا سوف نستطلع صورا من لوحاته الشعرية التى تعبر عن كل رافد منها خير تعبير ونحن في مجال الاستشهاد ثم الحكم

من منطلق الحب الجامح لمصر اخذ يحيى يمثل الشعب آنذاك سعد زغلول ويحذره من ختل الانجليز وخداعهم فهم قوم لا يحـذقون غير هذا الفن فقد خبرهم في السودان وهو يعمل معهم وذاق من كيدهم ودسهم حتى عب وانهل وان سياستهم ذات وجوه متعددة لا يعملون الا لفرقة أبناء الوطن وبث أسباب التناحر والتقاتل •• يقول :

الشعب يدعو الله يا زغـــلولُ ان يستقل على يديك النيـــلُ
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البـــلاد دخيـــلُ

لا تقرب التاميز واحذر ورده ... مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه ... والختل فيه مذوب مصقول
ولهم أحاييل اذا القوا بها ... قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
فاحذر سياستهم وكن في يقظة ... سعدية ان السياسة غول
ان مثلوا فدع الخيال فانما ... عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر في عمر السياسة فرسخ ... واليوم في فلك السياسة جيل
ولكل لفظ في المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول

« قد كان حافظ ضابطا في الجيش فهو عليم بخفايا امور الانجليز وأسرار سياستهم وما افتنوا فيه ، من وسائل وألاعيب فكان حدسه وظنه بهم في تقرير يسوقه بوضوح وجلاء انهم قوم ناكثون للعهود مضيعون لها » (١) ، ويأسي على حق الوطن في جلاء الغاصب عنه ، ويقول انهم ماكثون في أرضنا الى يوم النشور وهو يرمى من وراء ذلك الى اعلان الجهاد الدائم ضدهم والثورة عليهم وان لايلقى السلاح الا بعد جلائهم فيقول :

واكبر ظني أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان
أرى مصر والسودان والهند واحدا ... بها اللورد والغيكوند يستبقان
اذا غاضت الاهواء من كل مزيد ... وحزن بروج الرجم للحدثان
وعاد زمان السهرى وربه ... وحكم في الهيجاء كل يمانى
هناك اذكرا يوم الجلاء ونبها ... نياما عليهم يندب الهرمان

وتملى عليه وطنيته أن يغمز الاسرة المالكة ويرسم بريشة الفنان لوحة بارعة ، يضفى عليها من صريح مصريته الالوان والظلال

---

(١) ص ٨٧ حافظ ابراهيم شاعر القومية العربية ٠

والملامح ويوضح الخطوط والمعالم لتخرج الصورة بمرائيها على القلوب والنواظر يخاطب عميد الدولة المتسلطة « انجلترا » مشيرا الى عهد اسماعيل :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخضب الثرى وأن أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة فانى رأيت المن أنكى وآلما
عممتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طينا وارخصتم دما

أو أسمعه يوجه النداء الى عميد السياسة الباغية في «مصر « مندوبهم السامى » :

ألم تلمح دموع الناس تجرى من البلوى ، ألم تسمع أنينا
ألم تخبر بنى التاميز عنا وقد يعشوك مندوبا أمينا
بأنا قد لمسنا الغدر لمسا وأصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا

ويصاولهم ويتحداهم ويعلن في جسارة :

سنجمع أمرنا وترون أنا لدى الجلى كراما صابرينا
ونأخذ حقنا رغم العوادى تطيف بنا ، ورغم القاسطينا

وهو عربى يعتز بعروبته ويوظف اشعاره التى يقولها في التهانى أو المدح لبخدم الغرض القومى او يتناول موضوعا اجتماعيا أو دينيا ثم يضمنه احساسه ومشاعره نحو عروبته :

يهنىء صديقا له بامارة الحج ، فلا ينسي ان يضمن شعره الهاتف الخفى المستكن في نفسه فينشد وهو يحيى واصف غالى :

غرست من زهرات الشرق طائفة في أرض هوجو فجاءت طرفة الجانى
بالامس كان لها شرق تضوع به واليوم صار لها بالغرب شرقان

وفي هذه القصيدة يرد حافظ على قالة الفرنسيين ودعواهم من قصور الادب العربى عن استيعاب فنون الشعر فيقول :

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة من البراهين فلت قول « رينان »
أتحى على الادب الشرقى مغتربا عليه ما شاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة في الأشعار تنقصنا واللفظ والقصد والتصوير في آن
ولو رأى « ابن جريج » في قصائده لقال آمنت في سرى واعلانى

لم يستطر على لبه الا ذلك الحب الطاغى والتعشق لعروبته ووطنه فهو معه في أفراحه وهو معه في شدائده ، استمع اليه ما برحاً يردد مقالته في تفنيد تخرصات الانجليز ودعاواهم الكاذبة مقويا عزيمة الشعب رابطا على قلبه .

فديناك يا شرق لا تجزعن اذ اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنة أعقبت محنة وولت سراعا كرجع الصدى
فلا يؤيسنك قيل العداة وان كان قيلا كحز المدى

وينبه أمة الشرق ويفضح نية الغرب في طمعهم الدائب والسعى لالتهام الامة واستعمار الوطن .

فياشرق ان الغرب ان لان أوقسا ففيه من الصهباء طبع مذوب
فخف بأسها في الرأى والرأى يصطلى
وخف ضعفها في الكأس والكأس تطرب
ويا غرب ان الدهر يطفو بأهله ويطويه تيار القضاء فيرسب
أراك مقر الطامعين كأنما على كل عرش من عروشك أشعب

أو عندما يقول :

عزيز علينا يا بنى الشرق ان ترى كواكبـــه في أفقه غـــير طالع
وأعـلامه من فوقه غـــير خفـق وأقلامه من تحتهـــا غـــير شرع
فان كنت قوالا كريمـا مقـــالة فقل في سبيل النيل والشرق أودع

والشاعر يصور بكل الصدق كل ما يحيط به من مظاهر الحيـاة في شتى جوانبها بادئا بنفسه وكل من له صـــلة به وتتسـع دائرة التفاعل لتحيط بعلاقاته المتعددة مع أصدقائه وأنداده من الشـعراء وان كانت تلك العلاقات يمكننا أن نسـميها بأنها خاصـــة الا أن وشيجة القربى بينه وبين الشعب الذى هو أحد أفراده كانت قوية الى الحد الذى يعتبر به الشاعر لسانهم المعبر عنهم وكأنه وسع في جسده أرواح الامة ـ ولعل نشأته ـ كأغلب أفراد الشعب أو القطاع الكبير منه على البؤس والفقر والحاجة قد ربطه اليهم بأوثق العرى ٠

وددت لو طرحوا بى يوم جئتهم في مسبح الحوت أو في مسبح العطب
انى احتسبت شبابا بت انفقـه وعزمه شـابت الدنيا ولم تشـب
كم همت في البيد والآرام قائلـة والشمس ترعى اديم الارض باللهب
اذا نطقت فقاع السـجن متكـأ وان سكت فان النفس لم تطـب

نجد الشاعر يترجم عن احساس الشعب ويصور هذا الاحساس ابلغ تصوير عندما يتناول حادثة دنشواى ويجسد البلاء الذى حـــلّ بالوطن ويتخذ من الحادثة ذريعة الهجوم الشرس على العدو المغتصب ويجند كل طاقاته الشعرية وامكاناته في تسجيل هذا الحادث البشع والظلم الظالم ويؤرخ لخسة الاستعمار واحتقارهم واستهانهم لابنـاء الامم الاخرى ٠٠

أو كلمـــــا باح الحـــزين بأنه أمست الى معنى التعصب تنسب
رفقـــا عميـــد الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

في دنشواى وانت عنـــا غائب ... لعب القضـاء بنا ، وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتســـابقوا في صيدهن وصوبوا
نكبـوا ، وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر امرهم لم ينكبـوا
خليتهم والقاسـطون بمرصـد ... وسـياطهم وحبـالهم تتـأهب
جلـدوا ولو منيتهـم اتعلقـوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبـوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلـوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبـوا
والمسـتشار مكـاثر برجـاله ... ومعـاجز ومنـاجز ومحـارب
يختـال في أنحـائها متبسـما ... والدمع حـول ركـابه يتصـبب

كان حافظ على منابر القاهرة ، وفي حشود الشباب يستنهض الهمم ويستثير الجذوة ويوقد نار الوطنية ويؤجج مشاعل الحرية اثر حادث دنشواى وشنق الفلاحين وجلدهم ، ويرى حافظ أن الحـادث يجب أن يكون بداية صـحوة كبرى وثورة عارمة لا تهـدأ أبدا ولا تنطفىء شعلتها ..

قتيـل الشمس أورثنا حياة ... وأيقظ هـاجع القـوم الرقـود
فليت كرومرا قد دام فينـا ... يطوق بالسـلاسل كل جيـد
ويتحـف مصر آنا بعـد آن ... بمجـلود ومقتـول شـهيد
لننزع هذه الاكفـان عنـا ... ونبعـث في العـوالم من جـديد

ويعد حافظ أحد الذين كانت لهم القيادة والبطولة في ايقـاظ مصر ومجاهدة المستعمرين ، والصبر على أذاهم في السودان ولـذا نجده يستغل موضوع الساعة وحديث الوقت وجريمة العصر ليستخلص من هذه المصيبة حقوق الشـعب ، لقد اصـطنع بعض اسـاليب السياسيين وهو يعيش معهم .

أيها القائمون بالامر فينـا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟!
خفضـوا جيشكم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

ولا يخفى ما في البيتين من تعريض موجع لقومه وتحسر دفين لما آل اليه أمر بلاده ويشير الى القبد الذى يرسف فيه الشعب :

انما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الاجيادا

ويشير الى قتيل الشمس بقوله :

لا تقيدوا أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صادا

ثم يثور ويفور :

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا

ويبلغ ذروة البيان في التهكم والسخرية بهم حين ينشد :

كيف يملو من القوى التشفى من ضعيف القى اليه القيادا
انها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا

لقد سكب الشاعر دمعة على الحدث الخطير عله بها يستثير بنى وطنه ويفتح اعينهم على الخطب الجسيم الذى وقع أمام أعينهم وينبه هذا الشاعب الى معرفة أعدائه الذين لا يملك الشعب في مقارعتهم الا النوم والاستكانة حينذاك :

أمة النيل اكبرت ان تعادى من رماها وأشفقت ان تعادى
ليس فيها الا كلام والا حسرة بعد حسرة تتهادى

وهو في هذا الجو المكفهر جو السياسة العابس والتسلط من القوى المتربص مسلوب المروءة والضمير ضد الشعب الضعيف الاعزل يهيب ببنى وطنه من عملاء المستعمر في شخص ذلك المدعى العمومى بل ويصرخ فيه وفي امثاله مخاطبا مصر :

لا جرى النيل في نواحيك يا مصر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر فأضحى عليك شوكا قتادا

لا يمل الشاعر من رسم صورة مصر ملتهبة الاحشاء مضطربة من الغضب ترسل دمعات الحزن على شهدائها فاذا ما ذهب معتمد بريطانى وجاء اخر وكاد الناس ينسون الحادث البشع يتخذ الشاعر منه مطية العتب واللوم ثم يذكر قومه به ويفضح أكاذيب المعتمد عندما يرفع تقاريره متقولا على الشعب منددا به .

رفقا عميد الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
ان أرهقوا صيادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته وسخا بمهجته على من يغصب

ويتصعد الاسي في نفسه وتهيجه الذكريات فيواصل وصف الفاجعة :

موتان : هذا عاجل متنمر يرنو وهذا آجل يترقب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه في أنفس يجنى بمغرسها الثناء الطيب

واذا تجلت معايشة الشاعر للشعب وتعبيره عنه اثر حادث دنشواى فانه كان اكثر التصاقا وأعمق حين يستدر عاطفة الناس القادرين للتبرعات ولا تكاد تفوته ندوة او حفل يقام من أجل عمل خيرى الا وشاعرنا مدفوع بحسه الرقيق ليتصدر قائمة المنشدين يضرب على أوتار القلوب حتى يجزل المساهمون العطاء ، ولقد كثرت عنده قصائد الانشادة بالذين يقومون بالاعمال الخيرية او يدعون الى تأسيس جمعيات لذات الغرض وخاصة في المرحلة الثالثة من حياته ، فقد أسهم بجهد كبير في انشاء دور ايواء اليتامى واستعطف الاغنياء حتى يساعدوا الفقراء والمحتاجين يقول :

أيها الرافلـــون في حـــلل الوشي يجـــرون للذيول افتخـــــارا
ان فوق العـــراء قوما جيـــاعا يتـــوارون ذلـة وانكســـــارا
قد شهدنا بالامس في مصر عرسا ملأ العـين والفـــؤاد انبهـــارا
بات فيـه المنعمـــون بليـــل أخجل الصبح حسنه فتـــوارى

والعاطفة السامية للشاعر لا تتأثر فقط بالكوارث التى حلـت بوطنه بل يتفاعل عندما يبلغ سمعه ، أن مصيبة حلت ببقعة من الارض مهما كانت بعيدة فمشاعر الناس لا تعرف الفواصل ولا تحد بحدود . يقع زلزال « سينا » المدمر عام ١٩٠٨ فيصف مشاهد الرعب ويصورها بريشة مقتدرة حتى تأخذ بأحاسيس البشر ويتعاطفوا معهم :

ما لمســين عوجلت في صـــباها ودعـــاها من الـردى داعيـــان
ومحـــت تلكم المحاسن منهـــا حين تمـت آياتهـــا آيتـــان
خســـفت ثم اغرقت ثم بادت قضي الأمـــر كلـــه في ثوانى
فهنـــا الموت اسـود اللون جـون وهنا الموت أحمـر اللـــون قانى

ثم يصف ما يتعرض له الطفل والفتاة وذهـــول الأبوة في تلك الاهوال الرهيبة ..

رب طفل قد ساخ في باطن الار ض ينـادى أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــ ـر تعـانى من حـره ما تعـــانى
وأب ذاهـــل الى النـــار يمشي مستميتا تمتـــد منـــه اليـدان
باحثـــا عن بنـــاته وبنيـــه مسرع الخطـو مستطير الجنـــان
تأكل النـــار فيـــه لا هو نـاج من لظـاها ولا اللظى عنـه وانى
غصت الارض أتخم البحـــر مما طـــوياه من هـــذه الأبـدان

وفي القصيدة السابقة تلمح العاطفة المترعة بالحزن واللـوعة والاسي مع مقدرة فذة على تجسيد المواقف والمناظر المفزعة .

ولا ينسى الشاعر في غمرة الاحداث ومعترك الحياة ان يسدى ـ من أبوته الحنون وتجارب السنين ـ النصائح للناشئة ويأمل فيهم مستقبل هذا الوطن ، كما ادلى بدلوه في كل القضايا التى عاصرها فهو يقف موقفا وسطا عندما اثيرت قضية المرأة فيقول :

من لى بتربية النساء فانها ... في الشرق علة ذلك الاخفاق
الام مدرسة اذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الاعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن في الاسواق
يفعلن أفعال الرجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الاحداق
في دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمرزاق
كلا ولا ادعوكم ان تسرفوا ... في الحجب والتضييق والارهاق
فتوسطوا في الحالتين وانصفوا ... والشر في التقييد والاطلاق
ربوا البنات على الفضيلة انها ... في الموقفين لهن خير وثاق

فهو من انصار الفضيلة ودعاة الاخلاق والمتمسكين بأهداب السلوك والعادات والتقاليد الاسلامية .

وكم كان موقفه حازما من المستعمرين عندما يؤولون كل بادرة ثورة عليهم بانها تعصب من المسلمين يقول :

أو كلما باح الحزين بأنة ... أمست الى معنى التعصب تنسب

وكان الشاعر مسلما معتقدا في ربه وقد جر عليه هذا الاعتقاد المؤمن والتدين الواضح غضب قائد الجيش عليه في السودان فسجل عليه الشاعر تعصبه وعدائه للمسلمين حين يقول :

لحى الله عهد القاسطين الذى به ... تهدم من بنياننا ما تهدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم ... فلا تك مصريا ولا تك مسلما

وقدرة الخالق ومشيئته فوق الجميع فاذا أراد الله شيئا انما يقول له كن فيكون يقول :

اذا الله أحيـــا امة لن يردها الى المـوت قهـــار ولا متجـبر

ومن نفس عامرة بالايمان يسدى النصح للعقـــلاء ويرغبهم في أجل المثوبة وجزاء رب العالمين فيدعو الى الاحسان والعطف عـــلى الفقراء .

خير الصنائع في الانام صنيعة تنبـو بحـــاملها عن الاذلال
واذا النوال أتى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خـير نـوال
من جاد من بعد السـؤال فانه وهو الجواد يعد في البخـــال
انى ارى فقراءكم في حـاجة لو تعلمـــون لقـائل فعـــال
والمحسنون لهم على احسانهم يوم الاثابة عشرة الامثـــال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيـــال

ويرى ذروة اليقظة وقمة التحرر في ان تنشأ جامعة تكون الفرصة الكبرى لخلق الشباب وبناء الرجال فيقول :

ولا حيـــاة لكـــم الا بجـــامعة تكـــون أما لطـلاب العـــلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شـاهقة من المعالى وتبنى العز والغلبـــا

وهو لا يساهم في مشروع اجتماعى وانما يدعو الى بنـاء وطنى وارساء دعائم القوة وخلق الرجال ، واذن فـــلا يكون ذلك بالقـــاء الكلمات ثم جمع الدنانير والدراهم لا ، ولكنه يريد ان تتكتل القـلوب وتقام اسوار الجامعة من تلك الابعاد وينصـــح بنى قومه الا يدعو للعدو طريقا الى تخذيلهم بقالة كاذبة مما يتخرص بها فيقول :

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ضعوا النضار فانى أصفر الذهبا
وأبنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا قيل العدو فانى اعرف السببا
لا تقنطوا ان قرأتم ما يزوقه ذاك العميد ويرميكم به غضبا

ويقول معبرا عن اواصر الصلات بين أبناء العروبة والعروبة كما سبق رافد أصيل غذت ثقافته وحركة شاعريته يقول :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أمهما وان سئمت عن الآباء فالعرب
أيرغبان عن الحسنى وبينهما في رائعات المعالى ذلك النسب ؟
اذا ألمت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة الا الشام عاج على ربوعها من بنيها سادة نجب

ويبلغ الاعتزاز بالعروبة مداه متمثلا في تعظيم الشاعر للغته العربية ولما أحس من بعض المستغربين اهمالهم للغتهم العربية وتمسحهم بل ومباهاتهم بلغات الغرب أنشأ قصيدته يريد بها معشر الكتاب وان كان بدأها تحت عنوان اللغة العربية تنعى حظها يقول فيها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق اسماء لمخترعات
أنا البحر في احشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوادى في ربيع حياتى
أيهجرنى قومى عفا الله عنهم الى لغة لم تتصل برواة ؟
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الافاعى في عسيل فرات
الى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فأما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرمدوس رفاتى
واما ممات لا قيامة بعده ممات لعمرى لم يقس بممات

كان موقف شاعرنا من كل القضايا التى عاصرها موقفا ايجابيا ساهم فيها برأيه وأدلى بدلوه والنـــاظر الى ديوانه الذى حـــوى قصائده باحزانه الثلاث سوف يجد شاعرا متنوع الاتجاهات دءوب المسعى كثير النشاط فهو يهب واقفا للدفاع في الصفوف الاولى عن وطنه ومناصرا لقضايا عروبته فاذا ما لمح حفلا أو سمع عن ندوة أسرع الخطى ونازل الشعراء واحتل مكانه بينهم وارسل قصائده الغـــر تأخذ بالالباب وتأسر الافئدة ، كما كان الشاعر متجاوبا لاصـــداء الحياة في شتى نواحيها ، أرسل الدمعات الغزار في رثاء أصـــدقائه وخلانه وبعث بالكلمات الحزينة في توديع رفاقه وأساتذته لم يبخـل بالنصح على منتصح مضمنا كل غرض خاص هدفا أسمى وغـــاية كبرى ، فلا مانع ان يمدح صديقا له في تهنئته ، أو تحية لمناســـبة من المناسبات أو غرض من الاغراض او أن يتناول موضوعا اجتماعيا، أو دينيا ، أو قوميا فيضمنه احساسه ومشاعره نحو وطنه وان كان مقام القول مناسبته بعيدين كل البعد عن التغنى بامجاد الوطن ٠

لقد طرق كل الميادين التى يمكن ان يقال فيها الشعر ودبج فيها أروع القصائد وقد ذكرنا أمثلة متعددة لكثير من شعره في ميـــدان القومية والمجال الاجتماعى والدينى واذا قلنا كما بينا من قبـــل أن الثقافة ما هى الا حالة وجدانية أو رؤية تســـتمد وجودها من الدين واللغة والعادات والبيئة لمسنا الى أى حد كان حافظ ابراهيم يرتكز على أساس صلب من الثقافة أو بمعنى اخر عرفنا انه استقى شعره من روافد الثقافة الحقة فجاءت قصائده في كل جزئياتهـــا ترجمـــة صادقة لحياته وبيئته ومعتقده وللعادات التى ورثها عن ذلك التراث المتخم بكل المعانى الحسنة والمنهاج السليم ٠ وفي خاتمة هذا البحث أذكر ما سبق أن أوردته من قبل أن بعض الباحثين اعتقد عن طريق الخطأ الشائع في ان الثقافة تحصيل المعرفة واصبح من الدارج مقابلة المثقف بكثير العلم وقد وجه نقد ظالم في حيان كثيرة من هذا المنطلق

لشاعرنا نذكر على سبيل المثال ما ورد في كتاب الادب المعاصر (١) « قال حافظ في قصيدته التى يصف فيها كساء » له :

لى كساء انعم به من كساء أنا فيه أتيه مثل لكسائى
حاكه العز من خيوط المعالى وسقاه النعيم ماء الصفاء
وتبدى في صبغة من أديم الليل مصقولة بحسن الاطلاء
خاطه ربه بابرة يمن أوجروا سمها خيوط المعالى

في الابيات السابقة يقف حافظ بثقافته المتأرجحة بين التقعر في اللغة حينا وبين العامية في الصياغة والفكرة حينا آخر ، فتيه الكسائى يكون من جهة صدارته واماءته لعلماء الكوفة وتقدمه في اللغة والنحو وأنه مؤدب أولاد الخليفة العباسي فالتشبيه البيت ظلم لا مبرر له اللهم الا اذا كان قصد شاعرنا ان يأتى بجناس بين «كساء» و « كسائى » حتى تجمل الصورة كما توهم • ويستطرد مؤلف الكتاب « وفي البيت الثانى يقتدى حافظ بأبى تمام في الميل الى الاستعارات والفرق بين الشاعرين ان الطائى كان يستعير لتقريب المعنى اما صاحبنا فانه يستعير للابعاد فيما هو من قريب المعانى « فالعز » هو حائك الثوب والخيوط التى استعملت في حياكته من « نسيج المعالى » فاذا انتهى من هذا في الشطر الاول عاد ليحدثنا في الشطر الثانى عن لمعان الثوب وصفاء لونه ، فقد سقاه النعيم ماء الصفاء ومع هذا فلسنا في حاجة للتعليق على شطرى البيت فكل شطر منهما ذاهب الى سبيله التى لا يلتقى بسبيل الاخر اذ لا رابطة تجمعهما الا في عدوم الوصف ومضحك الاستعارات » •

---

(١) ص ٧٥ وما بعدها فى الأدب المعاصر د/عبد الرحمن عثمان •

وهكذا نجد ان معنى الثقافة عند مؤلف الكتاب ينحصر في تحصيل المعرفة والعلم وقد تحامل على الشاعر فذكر تلك النقدات أو المآخذ تطبيقا لمفهوم الثقافة الشائع عند الكثير ٠٠ ولكن بعرض تلك الصورة على المفهوم الاصطلاحى للثقافة ربما نحسبها له لا عليه ٠

د / زهران محمد جبر

مدرس بقسم الادب والنقد